" نظرية الأدب "

السنة الثانية

د. حسن الأحمد

المحاضرة الرابعة

مفهوم الأدب عند العرب القدماء

اصطلاحياً:

مرت لفظة أدب تاريخياً في اللغة والثقافة بمراحل كثيرة ومتعددة، ففي لسان العرب:

" **أَدِب القوم يأدبهم أدْباً إذا دعاهم إلى طعامه وصنع لهم مَأْدُبة** "

أي بدأ المفهوم حسياً، ثم انتقل إلى معنى نفسي وذهني يشمل مكارم الأخلاق وحسن التهذيب.

" **سُمي أدباً لأنه يأدِب الناس إلى المحامد** ".

ثم انتقل إلى معنى تعليمي ليكون الأدب:

" **أدب النفس وأدب الدرس، الأول بمعنى الأخلاق، والثاني بمعنى التماس النصوص وروايتها من الشعر والخطبة والأمثال... وتعلمها**".

وابتداء من أواخر العصر الأموي تحول الأدب إلى حرفة ونشأت طبقة ما سُمي بالمؤدبين، ودخل الأدب في علاقة إضافة إلى العلم: " **علم الأدب** "

يقول الجاحظ: " **وكفاك من علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل** ".

ثم تم ربط الأدب بالتحصيل والاكتساب والتفكير. يقول ابن المقفع: " **وللعقول سجيات وغرائز بها تقبل الأدب، وبالأدب تنمّى العقول وتزكو، وجُلُّ الأدب بالمنطق، وجُلّ المنطق بالتعلم**".

وقد قدم الفارابي في كتابه "إحصاء العلوم" أول محاولة تصنيف للمعارف ومن بينها علم الأدب مضمناً إياه: **علم الألفاظ ودلالاتها، وحفظ الأشعار وروايتها، وحفظ المنثور.**

كما حدد السكاكي في كتابه " مفتاح العلوم " محاور علم الأدب في:" **محور الصرف، ومحور النحو، ومحور المعاني والبديع....** ".

ومع ابن خلدون يكتمل تحديد المفهوم من خلال طرحه مصطلح "**علم اللسان**" الذي يشمل علم اللغة وعلم النحو وعلم الأدب. ويعرّف علم الأدب في قوله:

" **المقصود فيه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم**".

حيث يشير في تعريفه الى مسألتين:

١ – **الإجادة:** أي الفن والحرفة.

٢– الثمرة: أي وظيفة الأدب الفنية، على طريقة العرب وأساليبها.

أما الأدب فهو: " **حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف** "؛ أي يقصد مفهوم الثقافة بشكل عام، وهو ما نتداوله حتى الآن عندما نربط لفظة أدب بكل هذه المعاني الفنية والأخلاقية والثقافية والتعليمية.

والأدب في مراحله النهائية عند ابن خلدون مسألة فنية تشمل جنسي المنظوم والمنثور وعلاقة التداخل فيما بينهما:

"**وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه لم يفترقا إلا في الوزن**" .

نظرية الشعر عند العرب:

انشغل العرب بالتنظير للشعر أكثر من النثر لأسباب منها:

١– الشعر ديوان العرب، وهو وعاء الذاكرة العربية.

٢– علاقة الشعر بالحفظ والشاهد النحوي، ووضوح حدوده كجنس أدبي مقارنة بالنثر الذي تتعدد أنواعه، وخصائصه الفنية.

٣– ارتباطه بمفهوم المحاكاة أكثر من النثر بشكل يجعله أكثر الفنون بلاغية.

ومع ذلك فإن ثمة جهوداً نظرية في النثر ذات قيمة، اشتغل فيها غير ناقد عربي قديم.

محاور النظرية:

شملت النظرية محاور عدة ، بالرغم من بعض الآراء القائلة بعدم وجود نظرية وإنما آراء متناثرة لا ترقى لوصفها بالنظرية ، وبغض النظر عن ذلك فإن هذه الجهود هي ما يشكل نظرة العرب إلى مفهوم الشعر، وعلاقته بالنثر وفق مراحل متدرجة، **وأبرز ما تم بحثه هنا ما يأتي:**

١– التجنيس:

انطلق العرب من ثنائية (الشعر والنثر) للبحث في مفهوم الأجناس الأدبية فطرحوا مصطلح "**الكلام**".

– " **النظم والنثر نوعان قسيمان تحت جنس الكلام** " .

- " **الشعر نوع من جنس وذلك الجنس هو الكلام، وإذا صح ذلك قلنا إن الشعر جنس، والرجز نوع تحته** "

أي إن الجنس هو الأعم والنوع هو ما دونه بالنسبة إليه.

وإذا ذهبنا إلى مفهوم الكلام فإنه يعني "**ما كان مكتفياً بنفسه وهو الجملة** "، وهو: " الجمل المتركبة"؛ أي ما يقابل النص في المفهوم الحديث.

ولاحقاً تم تخصيص ذلك في أنواع محددة: "**أجناس الكلام ثلاثة: الرسالة والخطب والشعر**" وضبط ذلك في نظرة عامة من حيث الفن الذي لا يقتصر على جنس أو نوع بعينه: " **في الشعر والنثر جميعاً تقع البلاغة** ".

أي إن الأدبية متوافرة في الشعر والنثر على حد سواء، قياساً إلى الخصائص المكونة لكل جنس أدبي، وعليه فليس الشعر أكثر بلاغة من النثر أو العكس بل إن لكل جنس أو نوع بلاغته (أدبيته) وما يحدد ذلك النص وليس الجنس:

"التفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر، إنما هو في هذا المركب الذي يُسمى تأليفاً ورصفاً".

٢- نشأة الشعر:

قدم غير ناقد وجهة نظره في نشأة الشعر عند العرب، وإن كان بعضهم تجاوز حدود المنطق في ذلك نظراً إلى عدم وجود مصادر موثوقة في ذلك، فقيل: إنّ أول من قال الشعر هو آدم حين قتل قابيل هابيل.

ويرى الجاحظ أن أول من نهج سبيل الشعر وسهّل الطريق إليه هو: امرؤ القيس وومهلهل بن ربيعة.

أما الباقلاني فيرى أنه اتفق بداية بغير قصد في أثناء الكلام فاستحسنوه واستطابوه ثم تعلموه من بعد. يقول:

"**اتفق في كلام العرب مخارج حروف استحليت من غير قصد وفطنوا لذلك وغيّروه من حال لحال، أزواجاً وأفراداً فصار سجعاً وبرز التأليف الذي اسمه خطبة فصار السجع والخطابة، ثم فطنوا للتأليف فصار وزناً واحداً (شعراً) بطويله وقصيره ورجزه وقصيده**".

والكل مُجمع على أن الشعر بدأ مقطعات يقولها الرجل في حاجته وغالباً ما تُنظم على وزن الرجز ثم صار قصائد ونُوّعت أوزانه وقافيته مع وجود شعراء محترفين امتهنوا قول الشعر.

٣- بواعث الشعر:

الشعر عند العرب مرتبط بالباعث "**المحفّز**" ، والصناعة الشعرية، واتفق أن هناك أربعة بواعث هي:

الرغبة ← المديح

الرهبة ← الاعتذار

الطرب ← الشوق

الغضب ← الهجاء

أما الصناعة الشعرية فتحتاج إلى أربعة أشياء هي:

١- جودة الآلة (التقنيات).

٢- إصابة الغرض (التعبير عن المعنى).

٣- صحة التأليف (سلامة التركيب)

٤- الانتهاء إلى تمام الصنعة (الكمال).

وذلك كله يجب أن يكون مرتبطاً بالروح والإحساس والخيال، فالشعر ليس صناعة جامدة وإنما فيها من الذاتية والتخييل الشيء الكثير، كما في قول الراعي النميري لعبد الملك بن مروان:

أخليفةَ الرحمن إنّا مَعشَرٌ حُنُفاءُ نَسجُدُ بُكرَةً وَأَصيلا

عَرَبٌ نَرى لِلَّهِ في أَموالِنا حَقَّ الزَكاةِ مُنَزَّلاً تَنزيلا

فقال عبدالملك بن مروان: " **ليس هذا شعراً، هذا شرح إسلام وقراءة آية**".

٤- عمود الشعر:

عمود الشعر هو مجموعة القواعد التي حددها عدد من النقاد للشعر وتشمل مختلف عناصره:

اللفظ – المعنى – الموسيقا – الصورة....

وذلك نتيجة لما شهده الشعر من تطور على غير طريقة العرب التقليدية على نحو ما جاء به أبو تمام وبشار وأبو نواس.

وثمة صياغات مختلفة للعمود لدى الآمدي (**الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**)، والقاضي الجرجاني: (**الوساطة بين المتنبي وخصومه**)، والمرزوقي: (**شرح ديوان الحماسة لأبي تمام**).

فأُريد من هذه الصياغات وضع قواعد لطريقة العرب في نظم الشعر على مبدأ الطبع، وملاحظة التغييرات في هذه الطريقة بعد بروز ما سمي "**شعر الصنعة**"، وفي الحالين فإن ثمة جهداً نظرياً يراقب تطور الشعر ويرصده ويلاحظ المتغيرات التي تطرأ عليه بغض النظر من الموقف من هذا الشعر سواء كان قديماً (محافظاً) أو محدثاً.

٥- اللفظ والمعنى:

ثمة نقاش واسع عند العرب القدماء حول الشعر؛ هل هو ألفاظ (أسلوب وصياغة) أو معانٍ (صور وأفكار...)؟

ونتيجة ذلك لدينا ثلاثة فرق:

- أنصار اللفظ.
- أنصار المعنى.
- أنصار التكامل اللفظ والمعنى.

وما يهم نظرية الأدب هو الفريق الثالث، ومؤدّى طرحه أن المعاني أياً كانت لا بد لها من صياغة "**فنية**" تخرجها إلى الوجود، وأنه لا معنى شعرياً، وأن الأمر أولاً وأخيراً هو للصناعة أو ما سمّى "النظم"، يقول الجاحظ:

"والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك".

٦- مفهوم الشعر:

قدم معظم النقاد العرب القدماء تصورهم لمفهوم الشعر وتعريفه، فالتعريف العام القائل إن الشعر:

"**كلام موزن مقفى يدل على معنى**" هو ليس كل شيء في هذه القضية؛ إذ لا بدَّ من الوصول إلى جوهر الشعر وعمقه فكان ثمة الكثير من الآراء والجهود في هذا السياق، وأهمها:

- يرى الجاحظ أن الشعر: "**صناعة وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير**".

- أما ابن طباطبا العلوي في كتابه عيار الشعر فيؤسس لمفهوم نظري متطور للشعر في قوله: "**كلام منظوم بائن عن المنثور بما خُصّ به من النظم**" .

– ومن هذا الطرح يتبين أن محاولات صياغة التعريف غالباً ما استحضرت النثر لبيان ماهية الشعر؛ لأن النثر غالباً ما صوِّر على أنه النوع/ الجنس المقابل للشعر الذي يتميز منه بالوزن والقافية، وبوظيفته البلاغية (الشعرية) في مقابل وظيفة النثر الإقناعية.

– وبعض هذه المحاولات انطلق من باب العلم وشروطه كما فعل القاضي الجرجاني: "**والشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء والدربة**" .

– ويمثل حازم القرطاجني في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" مرحلة النضج في تحديد مفهوم الشعر عند العرب، وماهيته من حيث الفن نظراً إلى تعدد العناصر التي يقوم عليها الشعر من جهة، وإلى خبرته النقدية المؤسسة على ثقافة عربية ويونانية من جهة أخرى، وفيما يأتي تفصيل ذلك:

١– تجاوز التعريف التقليدي للشعر إلى بيان علاقة الشعر بالقارئ ووظيفة الشعر، وبنيته الإغرابية (الغموض) يقول:

"**الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يجبب إلى النفوس ما قصد تحبيبه إليها، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه، لِتُحمْلَ بذلك على طلبه أو الهرب منه، بما يتضمن من حسن تخييل له، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو مُتصورة بحسن هيئة تأليف الكلام وقوة صدقه أو قوة شهوته أو بمجموع ذلك، وكل ذلك يتأكد بما يقترن من إغراب، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها**".

٢– فالشعر عنده إذن: وظيفة ومحاكاة وتخييل وغرابة وكلها موجّهة باتجاه القارئ أو المتلقي. وهذا النظر الجديد عند حازم القرطاجني دفعه إلى التوسع في عرض مفهوم التخييل وصلته الشديدة بمفهوم الشعر بشكل أعمق من النظر إلى الشعر على أنه "**قول موزون مقفى يدل على معنى**" فقط.

يقول: "**التخييل هو قوام المعاني الشعرية والإقناع هو قوام المعاني الخطابية واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية سائغ، كما أن التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابية...؛ لأن الغرض في الصناعتين واحد وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام في النفوس**" .

٣– والتركيز على الحيلة (التقنية) هو هدف المحاكاة والتخييل وليس نقل الواقع كما هو.

فالتخييل هو تصوير الشيء حتى يُتوَّهم أنه ذو صورة تُشاهد، ويتجلى في أنواع الاستعارة والتشبيه والمجاز، ولذلك ينفعل له القارئ وهو يعلم أنه غير حقيقي.

أما المحاكاة فهي إيراد مَثَل الشيء وليس الشيء ذاته؛ أي إن الفنان عموماً والشاعر خصوصاً يحاكي فنه الطبيعية على مبدأ إكمال ما فيها من نقص وإعادة خلق الواقع بما يمكن للطبيعة أن توجده ولم توجده.